١٢- هفوة معلم

وجدتُ بينَ الأوراق ذاتَ يوم، قضيةً لأحَد المعلِّمين، حيثُ قامَ بإركَاب مجهولينَ بسيَّارَته، وحاولَ إيصالَهم إلى مكةَ المكرَّمَة، وليسَ لدَيهم هوياتٌ، وأحسَبُهم من المتسلِّلينَ.

وقَد تمَّ إيقافُه من قبَل رجَال الأَمن، وسُجنَ وحُوسبَ، ثُم أُرسلَتْ أوراقُه للوَزارة بصَفته من موظَّفيها.

وجَرَى دراسةُ القضيَّة في الإدارَة القانونيَّة واللِّجان الخاصَّة، ورأَوْا مُجازاةَ المَذكُور بالإنذَار، وعُرِضتْ للاعتمَاد.

وقَد تأمَّلتُ المعاملةَ، وقرأتُ القضيةَ،

وساءني تصرُّفُ المَذكورُ؛ فهُو معلِّمٌ ومُربٍّ، ورأيتُ أنْ لا نَكتَفيَ بخطَاب إنذَار، وإنَّما يلزمُ مخاطبةُ مَشَاعره، وتحريكُ عَواطفه، وهَزِّ وجْدانه؛ فهوَ جزءٌ من المُجتمَع، وواحدٌ من آلاف المُربِّين. وهَمُّ القيَادة التَّعليمية تَوجيهُهم، وإرشادُهم، ولهَذَا كتبتُ لَه الرِّسالةَ التاليةَ:

لأخِي الأستاذِ (ع.م.ع) وفَّقَه اللهُ

السلامُ علَيكُم ورحمةُ اللَّه وبَركاتُه، وبعد.

اطَّلعتُ هَذا اليَوم ـ ٢٨/ ٧/ ١٤١٦هـ ـ علَى معامَلَة خاصَّة بكَ بشَأن إركَابكَ لمجهولينَ، حيثُ حُوسبتَ، ونالَك ألمٌ، ومسَّتْكَ معاناةٌ.

وإنَّ الجزاءَ والعقوبةَ ليسَا هدفاً، ولكنْ أنتَ

معلمٌ ومَـربٍّ، تُدرِّسُ الفضيلـةَ، وتُعلِّمُ الأمانةَ، أنتَ قُــدوةٌ لـطُلابكَ، فكـيفَ يكونُ مـنكَ هذَا التصرُّفُ؟! وكيفَ يحدثُ منكَ هذا الخَلَلُ؟!

إنِّي أُخاطبُ عقلَـك ووجدانَك؛ فأنتَ رجلُ أمْن وحَارسُ وطَنٍ، فلا تَضعُف أمامَ أيِّ طارئٍ.

أمْنُ الوَطن مسؤوليتُنا جميعاً، ونحنُ ـ رجالَ التربيَة ـ نعلمُ القيمَ، ويجبُ أنْ نكونَ حُراسَها.

ولكَ يا أخِي تحيَّاتي ودعائي.

أخوك/ وكيل الوزارة

هذَا ولقَد هاتفتُ مـديرَ التَّعليم وناقَشـتُه في الأمْرِ، وتـفاهمتُ مـعَه حـولَ استدعَـاءِ المدرِّسِ

المَذكـور إلـى مَكتَـبـه، وقــراءَة رسَـالَتي عَـليـه وتَسليمها لَه.

وأرجُـو أنْ يكونَ ذلكَ المعـلمُ قَـد اسـتـفـادَ وتأثَّرَ.

١٣- قضيَّة وحِوار

القسوةُ في التَّعليم منهجٌ خاطئٌ، وأسلوبٌ ناقصٌ. وتمنعُ الوزارةُ الضربَ بكلِّ أشكَاله وألوانه. ومعَ ذلكَ يردُ للوَزارة تجاوزاتٌ من بَعض المعلِّمين. وتُدرسُ تلكَ المخالفاتُ من قبَل اللِّجان والأقسَام المتخصِّصة، ثُم تُعرَضُ علَى المسؤول للموافقَة علَى ما يُقتَرَحُ من عقُوبةٍ.

وذاتَ يَوم وصلَتني قضيةٌ للمعلِّم (ع.ع.ث)، وتتلخَّصُ القضيةُ في قيَام هَذا المعلِّم بضَرب طالبَين بالصفِّ الثَّاني الابتدائيِّ، وقَد اقترحَت اللجانُ الحسمَ عَليه.

ولكنَّ المعاملةَ استوقفتْني؛ حيثُ وجدتُ أنَّ الضربَ لطُلاب صغَار. ودرستُ القضيةَ وتأمَّلتُ الأوراقَ، ونظرتُ لمُرفَقاتها البَالغة اثنتَين وثلاثينَ ورقةً، وأعدتُ المعاملةَ بالتَّوجيه التَّالي:

الإخوةُ/ أعضاءَ لجنةِ القضَايا رعاهُم اللهُ

بالاطِّلاع عَلى المُعاملة ومُرفقَاتها تبيَّنَ أنَّ هذَا المعلِّمَ علَيه الملاحظاتُ التاليةُ:

أولاً: سبقَ الحسمُ علَيه بسبَب الضَّرب في عَام ١٤١٢هـ.

ثانياً: حسمَ علَيه بسبَب الغياب في عَام ١٤١٢هـ.

ثالثا: سريعُ الانفعَالِ.

رابعاً: يلاحَظُ علَيه عدمُ الجدِّية، وعدمُ الانضبَاط.

خامساً: يُلقبُ الطلابَ بألقابٍ لا تليقُ.

سادساً: الطالبان المضرُوبان صَغيران، بالصفِّ الثَّاني الابتدائيِّ.

سابعاً: طرحَ الطالبَ (ن) علَى الأرْض، ووضعَ قدمَه علَى ذرَاعه.

هلْ هَذا مربٍّ؟! هَل يقبلُ أيٌّ منكُم ـ أعضاءَ اللَّجنَة الكرَام ـ أنْ يُلقَى ابنُه الصَّغيرُ علَى الأرْض بهذَا المشهَدِ المُؤلمِ المؤثِّرِ؟!

هذَا المُعلمُ لا يجـــوزُ أن يُـدرِّسَ بالمَرحَـلة الأوَّليَّـة، ويا ليتَ أنَّه يُنقلُ إلى المرحَلة الثـانويَّة، فلَن يتمكَّنَ من هَذه المُصَارعة غَير المتكافئة؟

لكنْ ربَّما كانَ مـؤهِّلُه لا يسمحُ له بالتَّدريس في تلكَ المرحَلة، ثُم إنَّ الحَسمَ لَيسَ علاجاً، ولن يردعَ؛ فـالسَّـوابقُ تتكرَّرُ. أعـيـدُوا النَّظرَ. ولكُم تحيَّاتي وتَقديري.

وذهبَت المعـامـلةُ، ودُرستْ مـرةً أخـرَى، ثُم عـادتْ باقـتـرَاح آخـرَ، وهُو نـقلُه إلى مـدرسَـة بَديلة؛ حيث يتعـذَّرُ تحويلُه إلى المرحَلة الثانويَة؛ فمـؤهِّلُه ـ كمَا توقَّـعتُ ـ لا يسمحُ بذلكَ، كـمَا لَم تُوجَـد القناعـةُ لإبعَـاده عَن التَّدريـس؛ فهـوَ

يُنكرُ طَرحَه للطَّالب، ويَذكرُ أنَّه مبالَغٌ في الرِّوايةِ.

وقَد اعتمدتُ ما وردَ.

ولأنَّ المعلمَ يهمُّني صلاحُ منهَجه، وطَريقةُ تَدريسه فقَد رأيتُ مخاطَبة مَشاعرِه، وتحريكَ عَواطفِه، فذلكَ أبلغُ.

ولهذَا كتبتُ لَه الرِّسالةَ التَّاليةَ بخطِّ يَدي، وطلبتُ من مُدير التَّعليم استدعاءَه في مكتَبه، وقراءَة الرِّسالةِ عَليه، وتَسليمَها لَه.

تقولُ الرسالةُ:

أخِي الأستَاذ (ع.ع.ث) رعاهُ اللهُ

السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركَاتُه، وبعدُ:

لقَـــد اطَّلَعتُ هـذَا اليـــومَ ـ الســـبتَ ٨/ ٨/ ١٤١٦هـ ـ على المُعَامَلة الخـاصَّة بقضـيَّة ضَـربك للطَّـالبَين: (م.ن ، و/ د.ش)، وأفيـدُك أنَّها سبقَ أنْ عُـرضَت عليَّ قبلَ شَهر تَـقريباً، ثُم عـادَت إليَّ مـرةً أخـرَى، ودارَتْ بينَ أروقـةِ الوزارةِ.

أَخي الكريمُ، ليـسَت العـقوبةُ هدفـاً، وليسَ الجـزاءُ غـايةً؛ فـأنتَ زمـيلٌ وأخٌ تحـملُ أشـرفَ رسَالَة، لـكنَّ القسوةَ في الـتَّعليم والخُشـونةَ في التَّربية مَنهجٌ خـاطئٌ، وأسلوبٌ عقيمٌ، أنْأَى بكَ عَنه.

أخِي العـزيزُ، الطالب (ن) في الصَّف الثَّـاني الابتدائـيِّ، ولعلَّه في السَّابعـة من عُمـر، كيفَ تضـربُه بالعـقَال، وتَرمـيـه علَى الأرْض، وتضعُ رجلَك علَيه؟!

أخِي الفاضلُ، حـبِّب الطلابَ إليكَ، وشوِّق الفتيانَ لمادَّتك، واقرأ قولَ شَوقي مَرةً وأُخرَى:

أحْـبِـب الطفلَ وإنْ لَـم يكُ لَكْ

إنَّمـا الـطفلُ علَـى الأرْض مَلكْ

هَـو لُطـفُ اللَّـه لَو تـعـلمُـــه

رحمَ الـلهُ امـــرأ يرحـــمُـــه

عطفةٌ منه علَى لعبَته

تخرجُ المحزونَ من كُربَته

وحديثُ ساعَة الضِّيق معَه

يملأُ العيشَ نعيماً وسَعة

ولكَ أيُّها الزميلُ تحيَّاتي ودُعائِي لكَ بالتَّوفيقِ.

أخوك/ وكيل الوزارة

وبعدَ مُدة وصلتْني من المعلِّم المَذكور الرسالةُ التَّاليةُ.

لأستَاذي الفَاضل، وأَخي الجَليل، سَعادةَ

الدُّكتور عَبد العَزيز الثُّنيَّان حفظَه اللهُ

السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركَاتُه

لقَد كانَ لرسَالتكم التَّوجيهيَّة أعمقُ الأَثَر في نَفسي، وسعدتُ وتشرَّفتُ بهَا، وستكونُ من محفوظَاتي وذكريَاتي التي أعتزُّ بهَا، رغمَ أنَّ واقعَ القضيَّة التي أشرتَ إليهَا وحقيقتَها يُغايرَان المعاملةَ التي أستشفُّ ما جاء بهَا من حَديثكم؛ فأنَا ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ ابنُكم المخلصُ، وأخُوكم الصغيرُ ـ لم تَصل بي الحالُ لدَرجة استخدَام الأقدَام كعمليَّة تربويَّة، وبعدَ رسَالَتكم القيِّمة قَد لا يفيدُ تكرارُ ما قلتُه في إجابَة سابقَة من أنَّ الذي حصلَ للطالب (ن) هو مسحُ كَتفه أمامَ

زُملائه كـعمليَّـة تأنيبٍ لَه لِمَـا حصلَ من قَـذفِه زُملاءَه بالحجَارة.

وخـلاصـةُ القَـول أنَّ هذَا التـوجـيـهَ الكريمَ سيكونُ أمامَ ناظرَيَّ، أستمـدُّ منه بعدَ اللَّه منهجاً يحببُ الطلابَ ـ كمَا ذكرتَ ـ ويشوِّقُهم، وقبلَ هذَا وذاكَ يُرضي المولَى القديرَ ـ سبحانَه وتعالَى ـ ويريحُ الضـميرُ، ونؤدِّي بمُـوجِبه الأمـانةَ علَى الوَجه الأكمَل إنْ شاءَ اللهُ.

يا صاحبَ السَّعادة، لقَد قالَ المثقّبُ العَبْديُّ:

وكلمـةُ حـاسـدٍ من غَيـرِ جُـرمٍ
سـمـعتُ فـقلتُ مُـرِّي فـانفـذِيني

وعَـــابوهَـا عليَّ ولَـم تعِـــبْنِي

ولَم يعــرقْ لهَــا يومــاً جَــبِـينِي

ومَـا مِن شِـيـمَـتي شـتمُ ابنِ عـمِّي

ولا أنَا مـــخلـفٌ مَن يَرتَـجـيـنِي

وذُو الوَجــهَين يلـقَــانِي طَليــقــاً

ولـيسَ إذَا تـغـــــيَّـبَ يأتَـلِـينِـي

بصــرتُ بعَـيـبـه فـكفـفـتُ عَنه

مــحـافـظةً علَى حـسَـبـي ودِينِي

واسـمَحْ لي يا صـاحبَ السـعـادَة أنْ أتقـدَّمَ بخَالص شُكري وعَظيم تَقديرِي لسعادَتِكم.

وتفضَّلوا بقَبُولِ وَافِرِ احترَامي، وأطيَبِ تحيَّاتِي.

المخلصُ

ابنُكم (ع.ع.ث)

ولقد أبهجَني هذَا المعلمُ بمَشاعرِه ومخَاطَبته لي بالأخِ والصَّديقِ.

وأرجُو أنْ يكونَ الأمرُ كمَا ذكرَ، وأنَّ في الرِّواية مبالغةً.

إنَّ المعلمينَ إخوةٌ وأصدقاءُ، وأحبةٌ وأصحابٌ، نخاطبُهم ونحاورُهم، ونراسلُهم ونكرمُهم. وفَّقَهم اللهُ وأنارَ لَهم طريقَ الهُدى.

١٤- دمعَة أَب

الناسُ أسرارٌ، والرِّجالُ مواقفُ. وفي يَوم الأربعَاء، المُوافق ٢٨/ ٢/ ١٤١٦هـ، وجدتُ أخاً بينَ المراجعينَ، عرفتُ من نظرَاته أنَّه يريدُ محادثَتي على انفرَاد، فتركتُه حتَّى انتهيتُ من استقبَال ذَوي الحاجَات، ثم خَلوتُ به، وفجأةً وقبلَ الحَديث أجهشَ بالبُكاء، وذرَف دمعةً تلوَ أخرَى. وكنتُ أعرفُه رجُلاً جَلداً، لا تهزُّه النائباتُ، ولا تحركُه الجائحاتُ، وليسَ فيه ضَعفٌ ولا خَورٌ، وهُو من رجَال البَادية الأشدَّاء، ومن الأعرَاب الأقويَاء، صهرَتْه الشَّمس بحرَارتها، وعركَتْه الصَّحراءُ بقَسوَتها،

وتنقَّلَ من بَلدة إلى أخرَى، وجمعَ البَداوةَ والحضارةَ، والفصاحةَ والكرامةَ. وقد هالَني مَرآه، وساءَني مَبْكاه، وتساءلتُ هَل ما أراهُ حقيقةٌ أم خيالٌ؟ وهَل هَذا صاحبُنا الذي نعرفُ قسوتَه وحزمَه، ونعلمُ رجولتَه وخشونتَه؟

وبعدَ هُنَيْهَة تمتَمَ، وقالَ: ابنَتي ابنَتي! فزادَ اضطرَابي، وعظمَ قَلقي، وأسرعتْ بوادرُ الشرِّ، ولاحَتْ ومَضاتُ السُّوء، وتلاحقَ الخَيالُ، وتوالَى السُّؤال، ولَم أجرُؤْ على القَول، فقَد تلعثمَ اللسانُ، ووقفَ البيانُ، ثُم جمعتُ قُواي وقُلتُ: هوِّنْ علَى نَفسك، وخفِّف من قَلَقك يا أبا... لكن ما اسمُ الوَلد رعاكَ اللهُ؟ قالَ وقَد

خفَّ نحيبُه: ليسَ لي ولدٌ أكنَّى به، وإنَّما لي هَذه الفتاةُ؛ فهيَ وَحيدَتي وأَنيسَتي، وهي سَلوَتي وسُروري، وهيَ مَالي، وهيَ فُؤادي، وهيَ بصَري الذي أبصرُ به، وهيَ قَلبي الذي أهتَدي به.

قلتُ: ما لَها؟ خيراً إنْ شاءَ اللهُ؟ قالَ: إنَّها بخَير؛ لكنِّي أولَ مرَّة أبْكي، ولَن ألومَ الباكينَ بعدَ اليَوم، ودَعْني دَعْني أفرجْ همِّي، وأنفِّسْ كُربَتي؛ فهَذه المرةُ الأُولَى التي أجهشُ فيهَا بالعَبَرات، لكنْ عُذراً عذراً، ورفْقاً رفْقاً، فواللَّه ليسَ ذاك خَوَراً ولا ضَعْفاً، فلقَد شهدتُ الأحزانَ، فكنتُ بينَهم الجَلدَ الصابرَ، وحضرتُ

المآسيَ فكنتُ لدَيهم الصَّلَدَ القاسيَ، ماتَ أحبَابي فمَا ذرفتُ دمعةً، ورحلَ رفَاقي فمَا سكبتُ قطرةً، لكنِّي أعجبُ كيفَ غابَ التجلُّدُ الآنَ فصرتُ طفلاً؟! سبحانَك ربِّي! ما أجَلَّكَ!

قلتُ يا صَاحبي: لا لومَ ولا تثريبَ؛ فأنتَ أبٌ، وحَالي كحَالك؛ فلقَد أبكَتْني أُبُوَّتي مراراً، وهزَّتني شفَقَتي تكراراً. وللَّه درُّ الشَّاعر الأَميريِّ حينَ قالَ:

هَيْهَاتَ هَيهاتَ ما كلُّ البُكاء خَوَر

إنِّي وَبي عَزمُ الرِّجال أَبُ

قالَ: إنَّ ابنَتي نجحتْ في الثانويَّة العامَّة، وأريدُ لَها قَبولاً في إحدَى الكُلِّيات، ولَم

أستطعْ. وظلَّت الصبيَّةُ ليلةَ البَارحة باكيةً، فأبكَتْني، وأَرقَتْ شاكيةً فهزَّتْني، ولَم أَنَم لَيلي، وأصبحتُ قَلقاً حائراً لا أعلمُ مَا أفعلُ؟ ولا أدري إلى أين أتوجَّهُ؟ كنتُ أمْشي وأقُولُ: خُذوا نصفَ مَالي واقْبَلُوا وَحيدَتي، وأُحدِّثُ نَفسي، وأُنَاجي فُؤادي، حتَّى أنِّي كنتُ أنظرُ إلى مَن حَولي؛ فلربَّما سَمعُوا مُناجَاتي وحَسبُوني مُوَسْوِساً، وظنُّوني مَجنوناً. وقصدتُك، أريدُ عَونَك، وأطلبُ جاهَك، وأنشدُ دعمَك، وأرجُو أنْ تحدِّثَ هَذا، وتُحادثَ ذاكَ؛ علَّهم يَقبلونَ شفاعَتَك، ويستجيبونَ لطلَبك؛ فلقَد كُنْتَ بالأمْس الرَّجلَ الَّذي بتُّ أفكِّرُ في دَعمه. وهأنذَا بينَ يدَيك، وتلكَ حكَايَتي، ويَقيني أنَّك

ستعجبُ من ضَعفي، وكُنْتَ تَعلمُ قُوَّتي، وستحارُ من وَجَلي وأنتَ تعلمُ يَقيني، لكنَّها الأيَّامُ، واللهُ المستَعانُ.

وقد خفَّفتُ من آلامه، ووعدتُه خَيراً، وبذلتُ وتكلمتُ، وألحَحتُ ورجَوتُ، وتحقَّقَ الأملُ وَتمَّ الرَّجاءُ.

١٥- مأساة طالب

في يَوم من الأيَّامِ التي قضيتُها في إدارَة التعليمِ بالرِّياض، وبعدَ الساعَة العَاشرة صباحاً، وبينَما كنتُ أتأمَّلُ المُعامَلات، وأنظُرُ في الملفَّات، الواحد إثرَ الآخَر، أدخلَ مديرُ مكتَبي خطاباً موقَّعاً من طالبٍ يعرضُ فيه مأساتَه، ويُصوِّرُ فيه حيرتَه.

وقرأتُ ذلكَ الخطابَ فلَم أصدِّقْ ما قرأتُ، ونظرتُ فلَم أَقبلْ مَا عرَفتُ، إنَّه طالبٌ يشكُو والدَه الذي منعَه الالتحَاقَ بالمَرحلة الثانويَّة بعدَ أنْ أنهَى المرحَلَةَ المتوسطَةَ. وقد رزقَ اللهُ ذلكَ الطالبَ مَلَكةً بيانيةً مؤثِّرةً، فصاغَ رسالتَه بأسلُوب عاطفيٍّ رَقيقٍ، وعرَضَها بخطٍّ جَميل،

وختمَ رسالتَه بالدُّعاء لوَالده أن يعطفَ علَيه، وأن يغفرَ له كُلَّ قُصُور، وأنْ يسامحَه عن كلِّ تجاوُزٍ.

وقلتُ في نَفسي: لعلَّ الخطابَ كُتبَ لهذَا الطَّالب. وقبلَ أن أسمحَ لَه بمقابلَتي هاتفتُ مديرَ المَدرسَة المتوسِّطة التي نجحَ فيها، وسألتُه عَن هذَا الطَّالب، وأخبرتُه أنَّه موجودٌ في مكتَبي. فأبلغَني ذلكَ المديرُ بمَعرفَته بالمشكلَة، وأنَّ الطالبَ متميزٌ، وأنَّ له معاناةً وحسرةً معَ أَبيه، وطلبتُ من مُدير المدرسة أنْ يزورَني في المكتبِ بعدَ صَلاة الظُّهر ليشرحَ الأمْرَ.

ثُم أدخلتُ الطالبَ، وكانتْ رسالتُه صورةً لَمنظَره؛ فقَد كَان غَضاً، ولعلَّه في السادسةَ عشرةَ

من عُـمره. وآلَمتني مسـحـةُ الحُـزن التي تُجلِّلُه، وأدمَتْ فُؤادي عيناه الدَّامعتَان، وجرحَتْ كَبدي آهاتُه التي يردِّدُها، وعـجـبتُ من هُدوئه ورقَّتـه، وفَطانَته ونُعومَته.

وحينَ نظرتُ إلَيْه أطرقَ خَجلاً، وطَأطأَ رأسَه شـاكـيـاً، وناجَى قَلـبي فـؤَادُه، وتمثَّلـتُ بقَـول الرَّصافيِّ:

فلمَّـا شَـجـاني[1] حـالُهُ وأفـزَّني
وقــفتُ وكُلِّي مَــجْــزعٌ وتوجُّعُ
ورُحتُ أُعــاطـيــه الحنانَ بـنَظرة
كـمَـا راحَ يرنُو العـابدُ المُتـخَـشِّعُ
وأفـتحُ طَرْفي مُـشْـبـعـاً بتـعطُّف
فـيرتدُّ طَرفي وهْوَ بالحُـزْن مُشـبعُ

(١) شجاني: أحزنني.

هناكَ علَى مَـهـلٍ تقـدمتُ نحـوَهُ

وقلتُ بلُطْـفِ قـولِ مَنْ يتـضـرَّعُ

أيا بن أخي مَنْ أنتَ ما اسـمُك ما الذي

عَراكَ[1] فلَم تفرحْ فهَل أنتَ مُوجَعُ

ثُم سألتُـه لماذا قسَا والدُه عَليـه؟! ولماذا منعَه مـواصـلَة التَّـعليـم؟! ولكي أتأكَّـدَ مـن أسلُوبه وخطِّه وبيَانه، أعطيتُه ورقـةً بيضاءَ، وطلبتُ منه أن يعيدَ كتابةَ الاستدعَاء الَّذي قدَّمه مرةً أخرَى، فجلسَ ذلكَ الفتَى الحزينُ، وكتبَ الموضوعَ مرةً أخرَى بخطٍّ أجملَ، وبأسلوبٍ أحسنَ، ثم سلَّمَه ودموعُه تتقاطرُ، وآهاتُه تتوالَى.

---

(١) عراك: أصابك.

وقالَ إنَّه يحبُّ والدَه، ويعطفُ علَيه، ولكنَّه شيخٌ مغلوبٌ علَى أمْره؛ فزوجةُ أبيه قاسيةٌ ومستبدَّةٌ، وهيَ السببُ في مَنعه من الدِّراسة؛ حيثُ تريدُ أنْ يبقَى خادماً في البَيت، وإنَّها تَغارُ من تفوُّقه ونُبوغه؛ فأبناؤُها الذينَ هم إخوتُه من الأب يتكرَّرُ رسوبُهم، ويسوؤُها ذلكَ.. وصارَ يَروى معاناتَه من زوجَة أَبيه وتسلُّطَها علَيه، وإيقاظَها لَه قبلَ صَلاة الفَجر لإحضَار الخُبز، بينَما إخوتُه الذين يقاربُونَه في السنِّ ينامُونَ، لكَونهم أبناءَها. وتحدَّثَ عن كَذبها على أَبيه، وإيغَارها صدرَه علَيه، وأنَّها تأمرُه بتنظيفِ المطبخِ، وغسيلِ الملابسِ، وريِّ حديقةِ المنزلِ.

وحاولتُ أنْ أسألَه عَن أمِّه، لكنَّ القلقَ

منعَني، والرَّحمةَ صدَّتْني، فقَد خشيتُ أنْ تكونَ الحبيبةُ قَد رحلتْ عَن هَذه الدُّنيا، ولا أريدُ نَكْثَ جـراَحه، إلا أَنَّه كـانَ لَّماحـاً؛ فكأنَّه قرأَ سُؤالي، وعرفَ ما بخَاطري؛ ولهذَا أسرعَ، وقالَ: إنَّ أُمِّي بخَير وحيّةٌ ترزقُ، لكنَّها مطلَّقةٌ من أَبي. واسمحْ لي أنْ أقرأَ عليكَ قولَ الشَّاعر الرَّصافيِّ في امرأةٍ مثلِ أمِّي. قلتُ لَه: تفضَّلْ. فقَال:

منـزَّهةٌ عَن الـفَـحـشَـاء خَـوْدٌ
من الخـفـرَات آنـسـةٌ عَـرُوبُ[1]
نوارٌ تـسـتـجـدُّ بـهـا المعـالي
وتبلَى دونَ عـفَّـتـهـا الـعُـيـوبُ[2]

---

(١) الخود: المرأة الشابة. الخفرات: جمع خفرة. وهي المرأة التي تستحي أشد الحياء. الآنسة التي يؤنس بحديثها. العروب: المرأة المتحببة إلى زوجها.

(٢) النوار: المرأة النفور من الريبة.

أصابَتْ من شَبيبَتِها اللَّيالي
ولَمْ يُدرِكْ ذُؤابَتَها المَشيبُ[١]

حَليلة طَيِّب الأعراقِ زالت
به عَنها وعَنه بها الكُروبُ

رعَى ورعَت فلمْ ترَ قطّ منه
ولَم يرَ قط منها ما يُريبُ

وطلَّقها علَى جَهل ثَلاثاً
كَذلكَ يجهلُ الرجلُ الغَضوبُ

فبانَت عَنه لَم تأتِ الدَّنايا
ولَم يعلَقْ بهَا الذَّامُ المَعيبُ[٢]

(١) الذؤابة: الناصية وهي مقدم الرأس.

(٢) بانت: بعدت، الذام: العيب.

فظلَّتْ وهْيَ باكيـــــةٌ تُنادي
بصَـــوتٍ منه تَرتجفُ القُلوبُ
لماذَا يا نجيبُ صَرَمتَ حَبلي
وهَل أذنبتُ عندَك يا نجيبُ[1]
وما لَكَ قد جَفوتَ جفاءَ قالٍ
وصرتَ إذا دعوتُكَ لا تُجيبُ[2]
أبِنْ ذنبي إليَّ فَدَتْكَ نَفسي
فَإني عَنه بعدَئذٍ أتُوبُ
أمَا عاهَدتَني باللَّه أنْ لا
يُفرِّقَ بيننَا إلا شعُوبُ[3]

(١) صرمت: قطعت.
(٢) قالٍ: مُبغض.
(٣) شعوب: اسم للموت.

لئنْ فارقتَني وصددتَ عَنِّي
فقَلبي لا يُفارقهُ الوَجيبُ[١]

ومَا أدماءُ ترتعُ حولَ رَوضٍ
ويرتعُ خلفَها رَشَأ رَبيبُ[٢]

فمَا لفتَتْ إلَيه الجِيدَ حتَّى
تخَطَّفَهُ بآزمتَيه ذِيبُ[٣]

فراحَتْ من تَحَرُّقها علَيه
بداءٍ ما لَها فيه طَبيبُ

تَشمُّ الأرضَ، تطلبُ منه ريحاً
وتنحبُ والبُغامُ هُو النَّحيبُ[٤]

---

(١) الوجيب: الخفقان.

(٢) الأدماء: الظبية المشرب لونُها بياضاً. الرشأ: ولد الظبية الذي قد تحرك ومشى.
ربيب: ملازم لها.

(٣) الجيد: العنق. آزمتيه: نابيه.

(٤) تنحب: تبكي. البغام: صياح الظبية إلى ولدها.

وتمزَعُ في الفَلاة لغَير وَجهٍ
وآونةٍ لمصرَعه تثوبُ[1]
بأجزعَ من فؤادي يومَ قالُوا
برغمٍ منكِ فارقَكِ الحبيبُ

وبعدَ أن فرغَ من إلقَائه طأطأَ رأسَه، وانسكبَت دموعُه. ولقَد تأثَّرْتُ بالموقف أيّما تأثُّر، وحزنتُ أشدَّ الحُزنِ، ولكنَّني غالبتُ أحزَاني، وكتَمتُ مشَاعري، وطمأنْتُ الفتَى، وهدَّأتُ من رُوعه، واعتذرْتُ لَه عن أَبيه؛ فوالدُه - كمَا روَى - كبيرٌ في السِّنِّ، وزوجةُ أبيه - وإنْ قسَت عَليه - فهيَ جاهلةٌ، وعلَيْه الصَّبرُ والتَّحمُّلُ؛ فهوَ الرَّجلُ.

(١) تمزع: تُسرع. لمصرعه: لمكان هلاكه. تثوب: ترجع.

وهنَّأتُه بطُموحه، وباركتُ لَه تفوُّقَه، ووعدتُه بحلِّ مُشكلَتـه التَّعليميَّة، وأخبـرتُه أنِّي سأتَّصلُ بوَالده، وأمَرتُه أن يراجعَني بعدَ أُسبوعٍ.

وحينَ خرجَ الطالبُ لَم أستَطع العمَلَ، ولَم أتمكَّنْ من النَّظـر في المُعـامـلات؛ فلي عـواطفُ ووجـدانٌ، وأنَا أبٌ ومسـؤولٌ. وخَلوتُ بنَفـسي في غُرفَـة الاجتمَـاعات، وصرتُ في حَـيرَة من أمْري، واسـتخَـرتُ اللهَ، وعَزمتُ عـلَى معـالجَة هَذه الحَـالة الإنسـانيَّـة التي أدمَتْ فُـؤَادي، وجـرحَتْ عَـواطفي، وظلَّتْ ذكـرَاها باقـيـةً في مشَاعري. وها أنَا أقصُّها عليكَ ـ أخي القارئُ ـ وأرْويها لكَ ـ أخي المتـأمِّلُ ـ لكيْ تعرفَ مـعاناةَ المسؤُول، وهُمومَ مَن هُو في مَوقع المَسؤوليَّة.

وبينَمَـا أنَا في حَـيـرة من أمْـري إذا بمُدير

المدرسَة المتوسِّطة التي كانَ يدرسُ بهَا ذلكَ الطالبُ قد حضرَ، ودارَ بَيني وبينَه الحوارُ التَّالي:

قلتُ: لقَد سمعتُ هذَا اليومَ من الطَّالب الَّذي حدَّثْتُك بشأنه ما آلَمَني وساءَني!

قالَ المديرُ: لقَد صدقَ في كلِّ مَا قالَه.

قلتُ: وماذَا تعرفُ عَنه؟

قالَ المديرُ: إنَّه طالبٌ ذكيٌّ، وهادئُ الطَّبع، ومتفوِّقٌ على زُمَلائه.

قلتُ: ولماذَا يقسُو علَيه والدُه؟

قالَ المديرُ: إنَّ البلاءَ والسُّوءَ من زَوجةِ أبيه.

قـــلـــتُ: وكيفَ عرفتَ؟

قـالَ المديرُ: إنَّها تتصلُ بنَا فـي المدرَسة بالهَاتف، وتشتَكي منه، وتذمُّه وتعيبُه، وتطلبُ منا أن نوبِّخَه، وأن نضربَه.

قـــلـــتُ: وماذَا كانَ رأيُكم؟!

قـالَ المديرُ: كنَّا نزجـرُها، ونخـبرُها أنَّه مـؤدَّبٌ، وأنَّه هادئٌ ومـتفـوِّقٌ. وكَان كـلامُنا يسوؤُها.

قـــلـــتُ: وأينَ شخصيةُ الأَب؟!

قـالَ المديرُ: إنَّه مـسكينٌ، وصورةٌ وهيكلٌ. فلقَـد حدثَ مـرةً أن جاءَنا ومعَه عَـصًا من الخَيْـزران، وطلبَ أن نضربَ ابنَه في

الصَّباحِ البَاكر أمامَ الطُّلاب؛ لأنَّه متمرِّدٌ عليهم في البَيت، ولا يُنفِّذُ طلباتهم.

قلتُ : وماذَا فعلتُم؟

قالَ المديرُ: هدَّأنَا الأبَ، وأخبرْنَاه أنَّ هذَا أسلوبٌ غيرُ تَربويٍّ، وغيرُ إنسانيٍّ، وعاتبْناه، وأرشدْنَاه، وأخبرْناه أنَّنا سوفَ نوجِّهُ ابنَه أن يحترمَ والدَه، وأنْ ينفذَ رغباتِه.

قلتُ: وماذَا بعدُ؟

قالَ المديرُ: وبعدَ ذَهاب هذَا الأب الإمَّعَة، ولعلَّه وصلَ إلى البَيت وعرفَتْ زوجتُه أنَّنا

لَم نَستجبْ لطلَبه اتصلتْ بالهَاتف، وقالَتْ: لماذَا لَم تضربُوا ولدَنا؟! ألَم يُبلغْكم زَوجي برغبَتنا في ضَربِه أمامَ الطُّلاب؟!

قلتُ: وماذَا قلتُم لهَذه المرأة الحمقاء؟!

قالَ المديرُ: لقَد زجرْنَاها ووعَظْناها، وقلنَا لهَا: اتَّق اللهَ يا امرأةُ، واترُكي هَذا السُّوءَ، ولا دخلَ لَك بهَذا الأمْر، ودَعِي البَغْيَ والحقدَ؛ فعاقبتُهما وخيمةٌ.

واستمرَّ مُديرُ المدرَسة يؤكِّدُ هَذه المُعاناةَ، ويصوِّرُ مأساةَ ذلكَ الطَّالب المسكين، كمَا ذكرَ

أنَّ والدَ الطَّالب تسلَّمَ شهادتَه وملفَّه من المدرسَة، وحجزَها لدَيه، ومنعَه الالتحاقَ بالمَرحلة الثانويَّة. ثُم غادرَ مديرُ المدرسَة المكتبَ.

وبعدَ ذَلكَ اتَّصلتُ هَاتفيّا بالأَب، وعرَّفتُه بنَفسي، وطلبتُ منه أنْ يزورَني في المكتبِ، وحدَّدْنا الموعدَ.

وجاءَ ذلكَ الجاهلُ الأرعَنُ، ورَاعَني منظرُه وساءَني مَظهرُه؛ فقَد كانَ طويلَ القامَة، كثَّ الشَّعر، متقدِّماً في السنِّ، ولعلَّه في السَّبعينَ من عُمْره، ويلبسُ بشتاً أبيضَ. ودخلَ المكتبَ وسلَّمَ، ورحَّبتُ به، ثُم أمَرتُ بالقَهوة، وحادثتُه قليلاً، وانتقلتُ معَه إلى غُرفة الاجتماعَات، وفهمتُ أنَّ الرجلَ لدَيه ثقافةٌ عامةٌ وتعليمٌ يسيرٌ،

وأ ظنُّ أنَّه ما كانَ يتـوقَّع مجيءَ ابْنه إلى الإدارة، ولهذَا مَا إن فـاتحتُه في الأمْر حـتَّى ثارَ وغضبَ، وقالَ: أوَقَـد جاءَ إليكُم؟! ألَم يَـكتفِ بجمـاعَة المسجدِ؟

قـــلـــتُ: وهَل شـفعَ بأولئكَ الأَخْـيـار الذينَ تجتمعُ أنتَ وإيَّاهُم بينَ يدَي الوَاحدِ الدَّيَّانِ في أطهَرِ مكانٍ؟!

قـالَ الأب: نعَم، لقَد فضحَني، وشَهَّرَ بِي.

قـــلـــتُ: ومَا الفضيحةُ؟!

قـالَ الأب: إنَّه متـمردٌ، ولا يسـمعُ كَلامي، ولا يَقـبَلُ قولَ زَوجَـتي، ثُم كـيفَ يأتِي إليكُم وإلـى جَـمـاعـة المَسـجـد ليوسِّطَهم؟!

قـلـتُ: نحن نتحدثُ عن تَعليمه، لا عن طاعَته، فلماذَا تمنعُه مواصلةَ الدراسة؟!

قالَ الأب: لا شأنَ لكَ بذلكَ، وهَذه رغبتُنا.

قـلـتُ: اتَّق اللهَ يا رجلُ؛ فالعلمُ نورٌ، وماذَا تريدُ أن يعملَ؟

قالَ الأب: إنَّني أريدُ أن أؤدِّبَه.

قـلـتُ: وهَل الأدبُ في الجَهل وتَرك العلْم؟!

قالَ الأب: ألا تعلمُ أنَّه يؤنِّبُ زَوجَتي، وأنَّه ذاتَ يَوم سكَبَ وَقوداً على نَخلة غرستُها في البَيت؟!

قـــلـــتُ: احمَدِ اللهَ.

قـالَ الأب: وكيفَ؟!

قـــلـــتُ: إنْ صحَّ أنَّـه سكبَ الـوقـــودَ عـلَى النَّخلة ـ ولا أظنُّه يفـعلُ ـ فهوَ خـيرٌ من سكـبـه علـيكَ وعلَى زَوجـتكَ وإحراقِكُما، آهِ ما أصبرَه؟

قـالَ الأب: ماذَا تقولُ؟!

قـــلـــتُ: هلْ رأيتَه أوْ كانَ ذلـكَ كَلامَ الزَّوجة القاسـيَة؟ أينَ شَـخصـيتُك؟! وأينَ ذاتُك؟!

قـالَ الأب: لَم أرَه، ولكنَّ الزَّوجةَ أخبرَتْني.

قـــلـــتُ: كـانَ اللهُ في عَـونِ ابْـنِك، واتَّقِ اللهَ

وخافَه، فلماذَا يكونُ هُو الخادمَ والمزارعَ وإخوتُه أبناءُ الزَّوجة لهُم الحَظوةُ والمكانةُ،؟! ألا تَخشَى اللهَ في سُوء المعامَلَة؟ ألا تَعلمُ حُرمةَ التَّفْرقَة بينَ الأبنَاء في العطيَّة والمعامَلة؟! ألا تَشكرُ اللهَ أنَّه صالحٌ ومستقيمٌ ومتعلِّمٌ ومتفوقٌ؟! ماذَا لَو أنَّه منحرفٌ وفَاسد؟! ولَو أنَّه منغمسٌ في المخدِّرات ومعَ سفَلة وسُفَهاءَ؟! ألا يَسُوؤُك ذلكَ؟!

قالَ الأب: والنَّتيجةُ، ماذَا تريدُ؟!

قلتُ: أريدُكَ أنْ تعدلَ في المُعامَلة، وأنْ تكفَّ زوجتُك عَن الأذَى، وأنْ

تسمحَ لابْنكَ بـالدِّراسة، وأنْ تسلِّمَ لَه مَلفَّه وشهادتَه ليسجِّلَ في المَدرَسَة الثانويَّة التي يرغبُها.

قـالَ الأب: هَذا شأنٌ عائليٌّ، ولا دخلَ لكَ به.

قـلـت: أمَّا مُـعامَلتُك لابْنكَ وزَوجتك فـمَا قلتَـه صـحـيـحٌ، لا شـأنَ لـي بـه، ولا أسـتطيعُ أنْ أبذلَ إلا النصـيحـةَ والدعـاءَ، وأمَّـا تَعـليمُ ابنِكَ فـأنَا مسؤولٌ، ولي عَلاقةٌ بالأمْر.

قـالَ الأب: وكيفَ؟! أوَتتدخَّلُ في أمُوري؟ مَنْ وكَّلَك؟!

قـلـتُ: لَو أنَّ لي من الأمْـر شيءٌ لـحـجَـرتُ

عليكَ. ولَو أن وَقتي يسمحُ لي لقاضيتُك وخاصمتُك.

قال الأب وقَد وقفَ وهمَّ بالخُروج: ومَا النهايةُ؟

قلتُ: ابنُك سيتعلمُ، رضيتَ أم لَم ترضَ، وسوفَ نمنحُه ملفاً وشهادةً بديلةً عمَّا لدَيكَ، وسوفَ نعمِّدُ المدرسةَ الثانويةَ التي يرغبُها ابنُك بقَبُوله منذُ الغَد.

قالَ الأب: أوَتتدخلُ بَيني وبينَ وَلَدي؟!

قلتُ: نعمْ، وسوفَ نكتبُ لإمَارة الرِّياض إنْ منعتَه التعليمَ، وسوفَ نتابعُ

تعليمَه، وهَذه مسؤوليتُنا. ثُم ذكَّرتُه باللَّه، وخوَّفْتُه من هذا التصرُّف، وأنَّه يغلبُ علَى ظنِّي أنَّ هذَا الولدَ سوفَ يبرُّ به ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ وستثبتُ لَه الأيامُ صدقَ ظنِّي.

وخرجَ الرجلُ، وبعدَ ثَلاثة أيَّام حضرَ إلى المكتَب مرةً أخرَى، ولَم يُقابلْني، وإنَّما تركَ ملفَّ ابْنه بعدَ أنْ شطبَ رقمَ هَاتفه وعُنوانه، وكأنَّه يقولُ: لا تتَّصلُوا بي ولا تسألُوا عنِّي.

وفي المَوعد المحدَّد جاءَ الولدُ المسكينُ، وأمَرته أنْ يترفَّقَ معَ وَالده ومعَ زَوجة أَبيه، وأخبرتُه أنَّ والدَه أحضرَ الملفَّ، ووافقَ علَى مواصلَته التعليمَ. وأبلغتُ إحدَى المدَارس

الثانويَّة بالرِّياض بقَبُوله ومتابَعَته والحرْص علَيه.

وتركتُ تعليمَ الرِّياض بانتقالي إلى الوزارة، وغابَتْ صورةُ ذلكَ الطَّالب، ولكنَّها عادتْ حينَ بدأتُ أكتبُ هَذه الخواطرَ عَن التَّعليم. وأرجُو أنْ يكونَ قَد استمرَّ في تَعليمه، وأن يكونَ والدُه قد ثابَ لرُشده، ورجعَ لعَقله، وكبحَ جِماح زوجَته الحَمقاءِ.

١٦- هُمُوم ومُعَاناة

كنتُ معَ وَفْد تَربويٍّ من كبَار المسؤولينَ في وَزارَة المَعَارف قامَ بزيارَة لبريطَانيَا ذاتَ عام مضَى، وزُرْنا مجموعةً من المَدَارس البريطانيَّة والتقَيْنا عَدداً من التربَويِّينَ، واجتمَعْنا معَ كبَار المَسؤولينَ عَن التَّربية والتَّعْليم، وتشعَّبَ الحوارُ، وتنوَّعَ النِّقاشُ، وتعدَّدت الأسئلةُ.

وقالُوا: إنَّ رَأسَ العمليَّة التَّعليميَّة هوَ مديرُ المدرسَة، ونحنُ أخطَأنَا في بريطانيَا في الفَتْرة الماضيَة فلَم نُعطِ مديرَ المدرسَة الأولويَّةَ، ولَم نمنَحْهُ الاهتمامَ الأمثلَ، وأدركْنَا في بريطانيَا أخيراً الخَطأَ، وثبتَ لدَيْنا أنَّه الأهَمُّ، وأنَّه الأَوْلَى،

ولا بدَّ من العنَاية في اختيَاره، والاهتمَام بتَدريبه وإعـدَاده، والحـرْص عَلى إغـرَائه، وتَشْـجيـعـه وجَذبه؛ فهوَ المباشرُ للعملِ التربويِّ، وهوَ القائدُ للفريقِ العاملِ في المدرسةِ.

وشـاطرْنَا أولئكَ الـقـومَ الرأيَ في أنَّ مـديرَ المدرسَـة حـريٌّ بالعنَايَة، وجـديرٌ بالرِّعـايَة، وأنَّ نجاحَ العمَل التـعليميِّ مرهونٌ بمُديرِي المدارسِ، فـمنْ خـلال العـمَل المـيـدانيِّ الذي مـارسـتُـه، والزِّيارات الَّتي قمتُ بهـا للمدارسِ وجدتُ أثرَ مديرِ المدرسةِ واضحاً، ونشاطَه بارزاً.

لقَـد رأيتُ مـــدارسَ اهتمَّ مـديرُها بـالعـمَل فأبدعَتْ، وأخلصَ قائدُها للرِّسالة فتألَّقَتْ.

إنَّ الجوانبَ السلوكيةَ وعنايةَ المعلمينَ بهَا ورقابتَهم للطُّلاب مطلبٌ تربويٌّ، ومن أولويَّات العملِ المدرسيِّ، وإنَّ دفعَ الطُّلاب للنشَاط التربويِّ، وصقلَ مَوَاهبهم الثقافيَّة والاجتماعية والعلميَّة همٌّ ومسؤوليةٌ، وهَذه المجالاتُ تتوقَّدُ وتتوهَّجُ باهتمامِ مديرِ المدرسَة وحَماسَته، وتفاعُل المعلِّمينَ معَه، وتخبُو هَذه الأمورُ وتخمدُ بغَفلةِ مديرِ المدرسَة وتَراخِيه.

ولهذَا فإنَّ تطويرَ التَّعليم ومعالجةَ السَّلبيَّات وحلَّ المُشكلات مرهونٌ أغلبُها بمُدير المَدرَسَة، ولا بدَّ من الاهتمَامِ به والتَّركيزِ علَيه، ومَنحِه الأولويةَ، في مشَاريعِ وزارَة المَعَارفِ.

وكانَ اللهُ في عَون مُدير المدرسَة؛ فهُوَ يتعرَّضُ لمتابَعة المُشرفينَ التربويِّينَ، ولَوْمِ أولياء الأمُور، ورقَابة إدارَات التعليم، وتساؤل أجهزَة الوَزارة. إنَّه يعيشُ هُمومَ الطُّلاب ومشاكلَهم، ويعالجُ ويُداوي نفوسَ المعلِّمين والعَاملينَ معَه في المدرَسَة، إنَّه الحاملُ للأثْقال، المُتعرِّضُ للسِّهام، وما أكثرَ المواقفَ التي أتعبَتْ مُديري المدَارس، واختلفتْ أساليبُهم في علاجهَا، فمنهُم مَنْ سيطرَ على الأمْر، وتمكَّنَ من المُعالَجة، ومنهُم من تعجَّلَ وتسرَّعَ، أو كانَ الحدثُ أكبرَ منهُ، ووصلَ الأمرُ للوزارة.

ومن المواقف التي تعرَّض لهَا بعضُ المُديرينَ وظلَّت محفوظةً بالذَّاكرة ذلكَ المديرُ الَّذي استدعَى أحدَ أوليَاء أمُور الطُّلاب، وأخبرَه

بضَعف مُستوَى ابْنه، وانقطَاعه عَن المَدرَسة، وكانَ وليُّ الأمْر مُتسرعاً، فصفعَ ابنَه في المَدرَسة أمامَ المُدير وبَعْض المعلِّمينَ، وما كانَ من الطَّالب إلا أنْ راقبَ مدير المدرَسة بعدَ انتهَاء الدَّوام وتبعَه ورمَاه بمسدَّس كانَ معَه. وكُسرَ فَخذُ مدير المدرسَة. وحينَ جرَى التَّحقيقُ، وتمَّت المساءلةُ قالَ الطالبُ: إنَّه لا يستطيعُ ضربَ وَالده، ولكنَّ مديرَ المدرسَة هوَ السببَ، ولهذَا أطلقَ النارَ علَى ذلكَ المدير المسكينِ. وقَد حُوسِبَ الطالبُ وأُكرِم المديرُ.

ومديرُ مدرسَة آخَرُ نقَلَ أحدَ الطُّلاب من فَصله بالمَرحلَة الابتدائيَّة إلى فَصل آخرَ، وعَلمَ الأبُ، وجاءَ معَ ابْنه للمَدرَسة في اليَوم التَّالي، وأرغَى وأزبدَ، وشتمَ مديرَ المدرسَة، وكانَ مديرُ

المدرسَة عاقلاً، فـقالَ لذاكَ الأبِ وقَد وضعَ يدَه على رأسِ الطالبِ:

دَع الطفلَ يدرسْ ويـذهبْ إلى فَـصله؛ فَـلا ذنبَ لَه، إنَّ أمرَه يهمُّنا أكثرَ ممَّا يهمُّك.

وعندَ ذاكَ زادَ غـضـبُ الأب، وقـالَ: كـيفَ يهـمُّك أمـرُ ابْني؟! وجـاءَ يشـتَكي ذلكَ المديرَ العاقلَ الناضجَ لأجلِ تَغيير فَصْله!

ألاَ مَـا أصبَـرَكم زُمَـلائي مُـديرِي المدارسِ! وكانَ اللهُ في عَوْنِكم.

ولقد عبـر عن همومكم أخي حسن مـحمد الزهراني في قصيدته التالية: (هموم مدير).

أصبحتُ وا أسفَ الفؤادِ مديرًا

فوقعتُ في سجنِ الهُمومِ أسيرَا

احترتُ بينَ أمانةٍ حُمِّلتها

ورضَا الأنامِ فهَل أنامُ قريرا

ضِدَّان لا يتآلفانِ بموضعٍ

ما زالَ جمعُهما عليَّ عسيرَا

والناسُ مِن حَولي تزاحمَ وُدُّهُم

فرشُوا علَى طولِ الطريقِ حريرَا

فلكلِّ فَردٍ غايةٌ يسعَى لهَا

فيدَاه تحملُ للمديرِ زُهورا

وتقــرَّبَ المتـملِّـقـونَ ليُــدخِلُوا

في النفسِ من زيفِ الودادِ سُرورا

أثْنَوا عليَّ وبـالَغُـو في مـدحِـهم

حسـبُوا الوصـولَ إلى رضايَ يَسـيرا

لَم يعلَـمُـوا أنِّي أحـطتُ بكلمــا

رامُـوا وأكـتمُ في الفـؤادِ زَفِـيـرا

ما زلتُ أعـرفُ قدرَ نفسِي جـيدًا

مـا زالَ حـبِّي للظُّهـورِ صَـفـيـرا

وبهـيـئـةِ التـدريـسِ أبدَأ رحلَتِي

وأقـولُ عَن زُمَـلاء هـمِّي خَـيـرا

لكنَّ فـيـــهـم مَن تجـاهلَ دورَه

ليـشبَّ في صـدرِ المديرِ سـعيـرَا

فـمـدرسٌ متـــخـاذلٌ ومـدرسٌ

يهوَى الـغيابَ ويُحـسنُ التبـريرا

ومـــدرسٌ عَـكِرُ المِزاج فكلَّـمـا

أرشـــدتَه أبصـــرتَ مـنهُ نُفُـورَا

وإذا أمـرتَ وجـدتَ مـنهُ تشـرُّدًا

وإذَا نهـيتَ وجـــدتَ منه غُـرورا

والبـــعضُ مـنهم لا يريـدُ ريادةً

والبـــعضُ منهُم يكرهُ الـطَّابورا

والبـعضُ يشكُـو من تمامِ نصـابِه

والبعضُ منهُم يهـملُ التَّحضـيرَا

والبـعضُ فاخـرَني بخِـبرته ومَـا

ألقَى لَـهَـا في نهـجِـه تـأثيـرَا

والخبـرةُ العمـياءُ لا تجـدِي الفتَي

ما لَم يحاسبْ في الخَفـاءِ ضَميرَا

والبـعضُ منهم مُـخلصٌ ومثـابرٌ

جـعلَ الكتـابَ لنهـجِه دسـتـورَا

يخشَى الإلـهَ فمَا يهـابُ موجِّـهًا

يُحصِي العـيوبَ ولا يهابُ وَزيرَا

ومشـاكلُ الطلابِ لا تحُصَى فكَم

بعـثُـوا إليَّ معَ البليـدِ خَـفـيـرَا

فـأحـارُ حينَ أرَى أمـامـيَ طالبًـا

لَم يدرسِ التـاريخَ والتـفـسـيـرَا

ومُـشـاغبٌ في الفـصلِ إن عـاقبـتَـه

أمـسَى الفـؤادُ لما فـعلتُ كسِـيـرا

وإذا عـفـوتُ فـقَد فـتـحتُ لغـيـرِه

باباً وقَـد يستـسـهلُ الـتكريرا

واشـدُّ مـا شـقيَ الـفـؤادُ بطالبٍ

لا يُحـسنُ الإمـلاءَ والـتـعـبِـيـرا

أو طالبٍ مُـتـسـربلٍ بدهـائه

لبقِ الحـديثِ ويُتـقنُ التَّـزويرا

ويُزيلُ حُـزني طالبٌ متـفـوقٌ

ومُـؤدبٌ سـرَّ الفـؤادَ كَـثـيـرا

وعـجبتُ من عُـمَّالنا إذْ لَم أجـدْ

منـهُم لما يُسـدِي المديرُ شَـكورا

يتناوبونَ علَى الـغيـابِ فـإنْ أتَوا

نامُـوا وبثُّوا في الفـضاءِ شَـخيـرا

ولأوليـاءِ أمـورِ طـلاَّبي مَـعي

قـصصٌ سأُوردُ بعـضَهـا تذكِيـرا

يأتِي ولـيُّ الأمـرِ يضـــربُ ابنَه

عندِي ويدعُــو حسـرةً وثُـبُـورَا

والبعضُ جاءَ إليَّ يهـمسُ باسمًا

فسـمعتُ هَمـساً مُـذهلا ومُثـيرا

أعطِ الشـــهـــادةَ يا مُـــديرُ لابـنِنا

وتنـالُ منَّا لـو أردتَ بَعـــيـــرَا

والبـــعـضُ أهملَنَـا وأهملَ ابـنَه

لينـالَ مـــالاً يقـــهـــرُ التَّـــبـــذيرا

قَـد ظنَّ أنَّ صَـغـيـــرهُ مـتـفَـوقٌ

دومَـا ويُذهلُ إن رأَى الـتـقـريرَا

والبعضُ أزعجَنا بكُثرِ مجيئِه

أضحَى لنَا دونَ الجميعِ عَشيرا

والسائقونَ تذمَّرُوا من خطَّتي

لا يرغبونَ مدَى الدوامِ حُضورا

يشكونَ من شغبِ الصِّغار وبعضهُم

من حُمقِه لا يمشقُ التَّبكيرا

والخادمُ المسكينُ يبكِي حسرةً

إذ لَم يجدْ بينَ الأنامِ نصيرَا

لا مالَ يملكهُ ولا مأوَى لَه

قد كانَ حقاً بائساً وفقيرَا

فـتـبـدلَتْ أحـوالُه فـمُـواؤُه

أضـحَى وقـد نالَ الكثـيـرَ زئيـرَا

وإدارةُ التـــعلـيمِ تـطلُـبُنـي بما

لا يســتطاعُ وتمقتُ التــأخـيــرَا

وإذَا طلبتُ فـألفُ عُــذرٍ عندَها

حـتَّى وإنْ كـانَ المرادُ وفـيــرَا

هذا الـذِي كـــابدتُه وتـأكَّـــدوا

أنِّي صبرتُ على العـذابِ شُهورا

ولذا حـزنتُ لسوءِ حظِّي عندمَـا

أصبـحتُ وا أسفَ الفؤادِ مـديرَا

١٧- رِسَالة إلى المُعلِّم (م.م.ر)

يتلقَّى المسؤولُ فيضاً من المُعامَلات، وتُعرَضُ عليه مجموعةٌ من القَضايَا، ويتأمَّلُ ما هُو بينَ يدَيه؛ فهوَ قاضٍ يحكمُ ويتروَّى، وصاحبُ قَرار يلزمُه البَتُّ والحَسمُ. وذاتَ يومٍ وجدتُ أمَامي معاملةً للمعلِّم (م.م.ر)، وكانتْ بشَأن ضَرْبه أحدَ الطُّلاب، وقَد جرَى التَّحقيقُ معَه، ودُرسَتْ من قبَل اللِّجان المختصَّة، ومطلوبٌ الموافقةُ علَى اعتمَاد العُقوبة المقترَحة. وقَد درستُ الأوراقَ، وتصفَّحتُ المعاملةَ، وتبيَّنَ أنَّ المعلمَ متميِّزٌ، ولهذَا خالفتُ اللِّجانَ في الرَّأي، ووجَّهتُ بتَخفيفِ العُقوبة؛ فليسَت المحاسبةُ هدفًا، ولا غايةً.

ولأنَّ المعلمَ أساسُ التَّعليم، ولا بدَّ من مُلاحظَة الجَوانب النفسيَّة، ويلزمُ تَنبيهُه برفق وإرشادُه للجَانب الأمثَل، فلهذَا كتبتُ بخطِّ يدِي الرِّسالةَ التَّاليةَ للمعلِّم المَذكور:

لأخِي الأستاذِ/ (م.م.ر) سلَّمَه اللهُ

السلامُ علَيكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. وبعدُ:

فقَد اطَّلعتُ عَلى المُعاملة الدَّائرة بشَأن شَكْوى وليِّ أمْر الطَّالب (خ.ع.ش) من ضَرب ابْنه والبَصْق عليه من قبَلكم، وكذلكَ الشكوَى الأُخرَى من وليِّ أمْر الطَّالب (ن.ع.س) مِن ضَربِكم لابنِه.

أخِي الكريمُ، لقَد ساءَني تصرُّفُكم، وبخاصَّةٍ

البصقُ علَى الطَّالب الذي أنتَ أبٌ ومُربٍّ له قبلَ كلِّ شَيء، وآلَمني تكليفُكم الطالبَ الآخرَ بإحصَاءِ أخطاءِ زَميله في مادَّةِ القرآنِ الكَريمِ.

هَذان الأمْرَان لا نقبلُهُما تَربَوياً وتَعليمياً؛ إذْ كيفَ ستكونُ نفسيةُ الطَّالب أمامَ زُملائه؟! إنَّها ستتحطمُ وتنهارُ. تخيَّلْ أنَّك مكانَ ذلكَ الطَّالب! تصوَّر الحالةَ النفسيةَ لَه وزميلُه يَعُدُّ عليه أخطاءَه! إنَّه سيرتبكُ، سيهتزُّ، سيتألَّمُ، إنَّه سيكرهُ المادةَ، ويكرَهُ الأستاذَ، وسيتميَّزُ غضَباً علَى زَميله المُراقب لَه، وكأنِّي أنظرُ إلَيه وهوَ يحترقُ من الداخلِ.

أخي، لقد سرَّني وأسعدَني ما نلتَه من تقاريرَ

فنِّيَّةٍ من المُشرفينَ التربويِّينَ، وأبهجَني ما وردَ في استمَارَةِ الإشرافِ التربويِّ من تعاونُك معَ إدارَةِ المدرسَـة وزُمَلائك، ولهـذَا كانَ رَأيي الاكـتفـاءَ بتَنبـيـهكُم بَدَلاً من الحَـسم والإنذَار؛ فالـعقـوبةُ ليستْ هدفاً ولا غايةً تنشدُها الوزارةُ.

ولكَ أيُّهـا الزمـيلُ الـعـزيزُ خـالصُ تحـيَّـاتي وتَقديري.

أخوك/ وكيل الوزارة

هذَا، وقَـد كتـبتُ لمُدير التَّـعليمِ رسـالةً بخطِّ يَدي تقولُ:

لأَخي الكَريم/ مُدير التَّعليم سلَّمَه اللهُ

السَّلامُ عَليكُم ورَحمةُ اللهِ وبركَاتُه

أرفقُ لَكم رسـالةً لأخِي الأسـتاذِ (م.م.ر) المدرِّس بمدرسَة (أ.أ.س).

أرجُـو استـدعـاءَه في مكتَـبك وقـراءةَ هَذه الرسالةِ معَه وتسليمَها إلَيه.

ولكَ ولَه خالصُ تحيَّاتِي وتَقديرِي

أخوك/ وكيل الوزارة

١٨- ساكِن الخَيمة

كـانَ اللهُ في عَون زُمـلائي مُديري التَّـعليمِ؛ إنَّهم يواجـهونَ الجـمهـورَ، ويقـابلونَ مخـتلفَ الطَّبقَات، ويَجـدونَ مرارةً من بعضِ المراجعينَ، وقـسـوةً مـن بعضِ المعلِّمينَ، ونكَـداً من بعضِ الموظَّفينَ، وجَدلاً من بَعضِ المراجِعينَ.

وإنَّهم يتلقَّونَ تَعليـماتِ الوَزارة ويَصطَدمونَ بالوَاقعِ؛ فإرغَامُ النَّاس على نظامٍ لا يريدُونَه هَمٌّ وبلاءٌ، وتَعـويدُهم عَـلى أمـرٍ لا يرضَـونَه سُـوءٌ وعَناءٌ.

ومن ذلكَ نظرةُ الوَزارةِ نحوَ الأقسامِ العلميةِ والأدبيَّةِ بالمرحلةِ الثانويةِ؛ فهيَ توجِّهُ المناطقَ إلى

أن يكونَ قَبولُ الطُّلابِ مُرَكَّزًا في الأقسامِ العلميَّة، وأن تُخنَقَ الأقسامُ الأدبيةُ؛ فحاجةُ التَّنميَة إلى الأقسَامِ العلميَّة أكثرُ، والمستقبلُ للناجحينَ من تلكَ الأقسامِ أفضلُ.

إلا أنَّ بعضَ الطُّلاب لا يَعلمُونَ مصالحَهم، ولا يَتَبَيَّنُونَ مستقبلَهم، فيُصرُّونَ على الأقسَام الأدبيَّة، ويكونُ الضَّغْطُ واللَّغَطُ، وتمانعُ الناطقُ والوزارةُ، وتصدُّهم وتَرُدُّهم، ولكنْ نُسائلُ أنفُسَنا أحياناً، ونقولُ: أليسَ في ذلكَ قسوةٌ؟! أليسَ في هَذا خوفٌ على أولئكَ الطلابِ من الإخفاقِ؟!

وهَل الكلياتُ العلميةُ تستوعبُ جميعَ

الطلاب الناجحينَ في الأقسَام العلميةِ؟! وهل هي تشكُو قلةَ الطلابِ؟!

ثم أليْسَت الكليـاتُ العـسكريةُ تُسـوِّي بينَ الأقسامِ الأدبيَّة والعلميَّة في القَبول؟! والأولويَّةُ لذَوي الدرجـات العُليا سـواءً كانُوا من القـسمِ الأدبيِّ أم العلميِّ؟!

وماذَا نقولُ لأولئكَ المراجعينَ الذينَ يؤكِّدونَ أنَّهم وأبناءَهـم قَـد حـدَّدُوا توجُّهـاتِهم، وهيَ الكلياتُ العسكريةُ، ويطلبُونَ الأقسامَ الأدبيةَ؟!

وكنتُ ممَّن يرَى تَرْكَ الخيَـار للمُواطن، وعدمَ الإجبَـار والإكْرَاه، وألاَّ تُعـالَجَ الأمورُ بالضَّـغط والقَـسوَة، وأنْ يُعـادَ النظرُ في الأقـسَام الأدبيَّـة

بتكثيف مَناهجهَا، وخصوصًا بحفْظ القُرآن الكَريم، وبَعضِ القصَائد الشِّعريَّة، والتَّركيز على التَّحليل والاستِنباطِ والكتابةِ والإبدَاعِ، والخَطابة والإلقاء.

وفي المُقَابلِ التَّخفيفُ في مَناهجِ الأقسامِ العلميَّة، ومُراجعةُ بَعض المسائلِ الرياضيَّة والعلميَّة وتبسيطُها، واختصارُ بعض الموضوعات، وتحبيبُ هَذه الموادِّ الجافَّة إلى نُفوسِ الطلابِ بالتطبيقاتِ العمليةِ.

وأن تتوسَّعَ الجامعاتُ في قَبول الناجحينَ من الأقسامِ العلميَّة، وأنْ تُفتحَ المعاهدُ المتخصصةُ لهؤلاء الطلاب، ومن ثَمَّ سيتَّجهُ الطلابُ إلى تلكَ الأقسامِ بطَوعِهم واختيارِهم.

أو يكون التعليمُ الثانويُّ قسماً واحداً شاملاً ولا ضرورةَ للتَّشعيبِ والتفريعِ.

ومن الصُّور الَّتي أتذكَّرُها أنَّه في الأسْبوعِ الأخير من شَهر جُمادَى الأُولَى لعام ١٤١٧هـ، وجدتُ معَ المُراجعين أعْرَابياً، لعلَّه في الثَّمانينَ من عُمره، طلقَ المُحَيَّا، قَويَّ الشخصيَّة، فصيحَ اللِّسان، صهرَتْه الصحراءُ، وطبعَتْه بطابَعها القَاسي. وكانَ يطلبُ قَبول ابنَيْه (مسْفر ونغيمش) بالقسْمِ الأدبيِّ في إحدَى الثانويَّات؛ حيثُ إنَّ المدرسةَ وجَّهَتْهُما إلى القسمِ العلميِّ، ولكنَّ الطالبَينِ يرغَبانِ في القسمِ الأدبيِّ.

والسببُ في طَلبه وإلْحَاحه ـ كما يقولُ ـ

أنَّهم يعيشونَ في الصَّحـراءِ عَلى بُعد سبعينَ كم من المدرَسة، والسكنُ في خَيمة، حيثُ لا تتوافرُ الكهربـاءُ ولا المقوماتُ السكـنيَّة التي تؤهِّلُهـما للدِّراسات العلميَّـة، فلا يُذاكرانِ إلا في أطْرَاف النَّهـار. ولقَـد سرَّني حـديثُـه، وأعجـبَني قـولُه وأبهجَني اهتمامُه بأبنَائِه وحرصُه على تَعليمِهم.

وجرَى بيني وبينَه الحوارُ التَّالِي:

قلتُ: أليسَت المدرسةُ بَعيدةً؟

قـــال: نَعمْ. ولـكنَّ إرادَتَنا قـــويةٌ، وهـمَّـتُنا صحراويةٌ.

قلتُ: ولماذَا تسكنونَ هناكَ؟

قالَ: لأنَّ لدَيْنا إبلاً وأغناماً تقومُ بشؤوننا الدُّنيَويةِ.

قلتُ: ومَن يَرعاهَا؟

قالَ: أنا الرَّاعي للإبلِ. أمَّا الأغنامُ فنَدَعُها هملاً تدورُ وتدورُ ثم تعودُ.

قلتُ: والأولادُ؟

قالَ: يذهبونَ في الصَّباح البَاكر عَلى سيَّارة (داتسون) ميْسُورةِ الحَال، ولا يعودونَ إلاّ قُبَيلَ المَغربِ، فالمسافةُ سبعونَ كم.

قلتُ: باركَ اللهُ في همَّتك، وسَرَّك بأوْلادكَ،

وأراكَ فيهمُ القُدوةَ الحسنةَ. وإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَدَعَهم دونَ تعليمٍ.

قالَ: أبَداً أبَداً بتَوفيقِ اللهِ سيتعلَّمون، وبعَونِه سينجحُونَ وبإرادتِه سيتفوَّقونَ.

قلتُ: إنَّ الأقسامَ العلميةَ أفضلُ لأبنائِكَ، نريدُهم أطبَّاءَ ومهندسينَ.

قالَ: وإنَّني وإيّاهُم، نريدُ الكلياتِ العسكريةَ.

قلتُ: ولماذَا؟

قالَ: فيهَا الخشونةُ والرجولةُ، وفيهَا طبعُنا نحنُ أبناءَ الصحراءِ، ونحنُ رجالَ البادية.

قلتُ: وإذا نَجَحُوا في القسْمِ العلميِّ بإمكانِهم الالتحاقُ بالكُلياتِ العسكريةِ.

قالَ: ولكنَّهُما يطلُبانِ درجاتٍ أعلَى ودراسةً أسهلَ.

هذَا وقَد استجبتُ لطَلبه، وكتبتُ إلى المدرسَة بتَحْقيقِ رغبَتِهم.

إنَّها صورةٌ مثاليةٌ لأعرابيٍّ من الصَّحراء، إرادةٌ وفطنةٌ، ووعيٌ وإدراكٌ، وتحدٍّ ومتابعةٌ، وهيَ كذلكَ جانبٌ من جوانبِ مُعاناة المَسؤولِ. فهلْ يستجيبُ أم لا؟!